

الدور الاجتماعي والحضاري للمرأة عند مالك بن نبي

الدكتور سليمان ملوكي

كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة المسيلة

ملخص المقال:

المرأة الأوروبية فيه.

وتندرج قضية المرأة عند مالك بن نبي ضمن منظومته الفكرية العامة التي حددها في مشكلة الحضارة بأبعادها الشاملة السياسية، الثقافية، الاجتماعية والأخلاقية فمشكلة الحضارة عنده قضية لا تتجزأ، وأي تجزئ لها يقود حتما إلى طرح المشكلات طرحا خاطئا، ومن ثم تحديد وسائل خاطئة للعلاج.

يهدف هذا المقال العلمي إلى بيان موقف مالك بن نبي من مسألة أو قضية المرأة باعتبارها كائنا كامل المعالم، وهذا الكائن الإنساني لا يقع خارج التاريخ ولا

يعتبر المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي واحدا من رجالات القرن العشرين الذين شغلوا أنفسهم بقضايا أمتهم وسعوا إلى بلورة الحلول والاقتراحات الكفيلة بإخراج الأمة المسلمة من تخلفها الشامل والمركب ودفعها إلى معانقة العصر. وفي إطار مشروعه الفكري العام وتحديد نوعية وطبيعة المشكلات التي يواجهها المجتمع الإسلامي، وقف مالك بن نبي عند قضية المرأة التي تعرضت لكثير من التشويه خصوصا مع اتساع دائرة التأثير بالنموذج الحضاري الغربي وموقع

خارج المجتمع. لكن دوره محدود بنشاطه وحركيته بتغييره الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع الإسلامي بشكل عام وفي المجتمع الجزائري بشكل خاص أو من حيث دوره في التاريخ صانعا للحضارة.

مقدمة

تندرج قضية المرأة عند مالك بن نبي ضمن منظومته الفكرية العامة التي حددها في مشكلة الحضارة بأبعادها الشاملة: السياسية، الثقافية، الاجتماعية والأخلاقية، فمشكلة الحضارة عنده قضية لا تتجزأ، وأي تجزئ لها يقود حتما إلى طرح المشكلات طرحا خاطئا، ومن ثم تحديد وسائل خاطئة للعلاج.

وقبل أن تكون المرأة أنثى فهي إنسان، وبالتالي هي كائن كامل المعالم، وهذا الكائن الإنساني لا يقع خارج التاريخ، ولا خارج المجتمع. لكن دوره محدود بنشاطه وحركيته بتغييره الاجتماعي للتاريخ.

فإذا تناولنا مشكلة الإنسان المسلم نكون قد التقينا بمشكلة المواطن داخل المجتمع الإسلامي من حيث دوره في التاريخ صانعا للحضارة⁽¹⁾. إن تشخيص المشكلات وتحديد معالمها إلى منظور كمي، ذلك أن وضع جدار فاصل بين المرأة والرجل يؤدي ضرورة إلى البحث عما يفرق ويجمع بينهما، وبعد ذلك إلى إيجاد ما ينقص المرأة إزاء الرجل، وهل هي أكبر أو أصغر منه أو تساويه في القيمة. ويعتبر مالك بن نبي أن هذه الأحكام ما هي إلا افتراء على حقيقة الأمر⁽²⁾.

لقد ميّز مالك بن نبي بين موقفين متقابلين من قضية المرأة: موقف المتمسكين بإبعاد المرأة عن المجتمع وإبقائها في وضعها التقليدي الذي كرسه التقاليد، وموقف الداعين إلى أن تخرج في صورة تلفت إليها الغرائز. ورأى أن موقف هذين الفريقين عن دافع واحد هو الغريزة. وهذان موقفان

إلى المرأة الأوروبية، لأن هذه هي الخطوة الأولى نحو التشخيص الصحيح للمشكلة ومكامن الخلل. ومالك لا يضع أيضا أزمة المرأة الأوروبية في معزل عن أزمة الحضارة الغربية عامة لأن المنظور الحضاري عنده هو «إطار كلي للتفسير» يتم رد جميع المستويات والجزئيات إليه في سياق كلي شامل، تأتي بعدها الخطوة الثانية وهي ضرورة التخلص من النظرة الجامدة إلى التقاليد التي عقلت بالممارسات والوعي الديني لدى الفرد المسلم. وإذا كانت المرأة مساوية للرجل، فهي غير مماثلة له تختلف عنه بنية وميولا، فهي تتكامل بتركيبها النفسي والعضوي مع الرجل، ولا تماثله، فتحقق بذلك التوازن وسنن التكامل التي تجمع شطري البشرية⁽⁴⁾.

ومما لا شك فيه هو أن تقليد المرأة الشرقية المسلمة وتأثيرها بالمرأة الأوروبية لا يحل المشكلة وإنما يزيدها تعقيدا، لأن انتقال

لا يسهمان في حل المشكلة، بل ربما زادا الطين بلة. وإذا كان موقف الداعين إلى التحرر على النمط الغربي واضح الأخطار على المجتمع الإسلامي بسبب ما يؤدي إليه من ترسيخ للتبعية وتبليد للحس الإسلامي وضرب الهوية الخاصة للأمة، فإن الموقف الثاني قد يكون أشد خطرا لأنه يعطي لأعداء الأمة المبررات للخوض في سمعة الإسلام والتشكيك فيه، ويجعل المرأة حين تفكر في الحرية لا تجد أمامها إلا النموذج الغربي الحاضر أمامها. من أجل ذلك يستبعد مالك هذين الموقفين لأنه «لا أمل لنا أن نجد في آرائها حلا لمشكلة المرأة إن إعطاء حقوق المرأة على حساب المجتمع معناه تدهور المجتمع... إن القضية إذن ليست قضية فرد بل قضية مجتمع»⁽³⁾.

ويجب التخلص من نظرة الإعجاب التي ينظر بها أنصار تحرر المرأة في العالم الإسلامي

المرأة من امرأة محجبة إلى امرأة سافرة لم يحل المشكلة، فهي لا تزال قائمة. وكل الذي فعلناه أننا نقلنا المرأة من حالة إلى حالة. وسنرى عما قريب أن انتقالها هذا عقد المشكلة بعد أن كانت بسيطة. فحال المرأة الأوروبية ليست بالحال التي تحسد عليها، فقد رتب خروجها في صورة تخاطب غريزة الفرد الحيوانية أخطاء جديدة حيث وصلت مشكلة النسل إلى حالة تدعو إلى الرثاء، وفقد المجتمع نظامه الاجتماعي المتماسك الصلب، وانمحت المعاني الحقيقية التي تحترم العلاقات الجنسية، وأصبحت هذه العلاقات تسلية للنفوس المتعطلة وبذلك فقدت هذه العلاقات وظيفتها من حيث هي وسيلة لحفظ الأسرة وبقاء المجتمع. ويدعو مالك بن نبي إلى أن توضع قضية تحرر المرأة المسلمة في إطارها الحضاري الإسلامي الطبيعي وفي إطار الخصوصيات

الحضارية والثقافية للأمم، فينبغي إذن أن نطبع حركتنا النسائية بطابعنا لا بطابع ما يصنع في الخارج»⁽⁵⁾. لقد كانت المرأة في أوروبا ضحية هذا الخروج لأن الكثير من الأدبيات في الفكر الغربي مازالت تعزل قضية المرأة عن المجتمع⁽⁶⁾ الذي حررها ثم قذف بها إلى المصنع وإلى المكتب وقال: «عليك أن تأكلي من عرق جبينك» في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشؤومة، ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، فقدت بذلك الشعور بالعاطفة نحو الأسرة وأصبحت بما ألقى عليها من متاعب العمل صورة مشوهة للرجل دون أن تبقى امرأة.

إنه ينبغي أن تطبع حركتنا النسائية بطابعنا لا بطابع ما يصنع في الخارج، وعلى أية حال فالمرأة ليست كائنًا يعيش وحده ويطرح مشكلاته على هامش المجتمع، إنها أحد قطبيه وقطبه الآخر الرجل، ولا

ينبغي لنا أن نتصور قطبا ينفصل عن الآخر، ولو حدث هذا فالمجتمع نفسه يتبخر»⁽⁷⁾.

ويقترح مالك بن نبي إقامة مؤتمر لا يتمثل في إقامة هيئة أو اتحاد وطني للنساء الجزائريات، له مؤتمر مجلسه، وأمانته، لأن محتوى تلك المؤتمرات أصبحت تعقد باستمرار، ولكن ليس بالكيفية الجادة المحققة للمرأة الجزائرية مكانتها السياسية والاجتماعية. فالهدف من المؤتمر الذي اقترحه مالك بن نبي هو معالجة مشكلة المرأة الصانعة للحضارة من مختلف جوانبها، ولذلك يجب إضافة مجموعة من الأخصائيين والأخصائيات إلى هذا المؤتمر حتى يؤتي الثمار المرجوة منه، ونلحق بركب الأمم المتحضرة في الجانب المادي، ولكن نتفوق عليها في جانب الروحي والمعنوي للحضارة. أي على المرأة المسلمة أن تستوعب ما هو إيجابي لدى المرأة سواء في الشرق أو الغرب، ولكن

لا تقلدها في مجال الأخلاقيات والآداب، بل في هذا المجال يمكن للمرأة المسلمة أن تصدر ما لديها من فكر أخلاقي وتربوي»⁽⁸⁾.

1. المرأة ومشكلة الزي.

إن الزي ليس مجرد ديكور خارجي خال من المعاني والمضامين الكبرى في حياة الأمة، بل تعبير عن هوية، فهو يسهم في تمييز المجتمعات عن بعضها ويعطيها خصوصيتها المتفردة، ويجعل الفرد باتمائه إلى ثقافته وحضارته الخاصة، ويعطيه الشعور بالتكاليف الاجتماعية التي يضعها عليه لباسه المميز.

ويخصص مالك بن نبي في كتابه «شروط النهضة» فصلا خاصا في صيغة إشكالية تحت عنوان «مشكلة الزي» بعد الفصل الذي خصصه لقضية المرأة، وذلك لبيان الترابط العضوي بين القضيتين، ليدل ذلك على أنها مسألة لصيقة

بن نبي-رحمه الله- نموذج المرأة اليهودية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي لهذا البلد، فقد كانت هذه المرأة تأتي من أطراف الواحات الصحراوية الجزائرية بأزيائها البدوية للتتحول إلى «مواطنة يهودية» منذ أن تصعد الباخرة وهي تتأهب للهجرة إلى فلسطين حيث تترك المفلحة والكحل وترتدي الأزياء التي تناسب طبيعة المجتمع الجديد. فهذا التغيير الشكلي في حقيقته هو مجرد خطوة أولى في سلسلة تطويرية تصل إلى حد التغيير النفسي والفكري بعد أن تكون المرأة اليهودية قد ألفت عن جسدها اللباس القديم الذي كان يربطها بالمجتمع منذ قرون، واستعدت لإعادة بناء شخصيتها وتشكيل وعيها في المحيط الجديد⁽⁹⁾.

ودور المرأة حسب مالك بن نبي يكمن إذن في إعادة البناء الحضاري للأمة من جديد، فهي عماد الأسرة التي تقوم بتشكيل الأفراد وتنشئتهم

بالثقافة وبالنموذج الحضاري للمرأة المسلمة.

إن الزي أحد عوامل التوازن الأخلاقي الرئيسة، بل أكثر من ذلك يعتبره ذا روح خاصة ليس اللباس من العوامل المادية التي تقرر التوازن الأخلاقي في المجتمع فحسب، بل إن له روحه الخاصة به، وإذا كانوا يقولون: «القميص لا يصنع القسيس» فإني أرى العكس من ذلك، فإن القميص يسهم في تكوين القسيس إلى حد ما، لأن اللباس يضيف على صاحبه روحه. فلم يكن مصطفى كمال الذي قضى على الخلافة العثمانية حين نزع «الطربوش» واستعاض عنه بالقبعة يريد فقط تغييرا شكليا واستبدال زي بآخر، وإنما أراد اعتماد حضارة وسلوك اجتماعي معين، لذلك جاءت القبعة بمثابة القنبلة التي انفجرت في ذلك المجتمع.

وفي معرض حديثه عن الاختيار الثقافي والحضاري، يسوق مالك

داخل العالم الإسلامي بل حتى على المستوى الدولي خاصة إذا دعت إلى ذلك الصورة الاجتماعية، ونعني بها تحقيق الأهداف والقيم العليا للأمة الإسلامية خاصة إذا ما عرفنا أن أوضاع المرأة المسلمة تتطور بطريقة غير مرسومة الأهداف ودون غاية محددة، أي بعيدا عن أهداف البناء الحضاري للأمة.

وبهذا يتضح لنا جليا أن مالك بن نبي -رحمه الله- يفضل الحديث عن الحضور الدائم للمرأة في صناعة الحضارة وفي تحقيق الدور المناط بها داخل المجتمع ولا يتحدث عن تحررها أو عن حريتها، وربما لكي لا يقلب المفاهيم ويسقط في شرك المصطلح العربي الذي يخرج المرأة عن دورها الريادي في تحقيق السنة الاجتماعية والسياسية البناءة. بعد أن تغير المرأة نفسها، تنطلق إلى تربية الأجيال بعد زواجها، وهنا تبدو المهمة جليلة. فالولد الصالح من فعل الإنسان

على معاني الحضارة وإعداد الأجيال لحمل الرسالة، ولذلك يضع مالك علاقة متينة بين شخصية المرأة التي يريد لها المجتمع وبين قضية بناء حضارة المجتمع. فدور المرأة إذن في جوهره يعبر عن قضية إنسانية اجتماعية، بمعنى أنها لا تنفصل عن الرجل، كما يؤكد الواقع أنه ليس للمرأة وللرجل تاريخان منفصلان، فهما صانعا التاريخ والواقع المشتركين.

2. المرأة وواجب التغيير.

لتحقيق المهمة الحضارية للأمة يحرك مالك بن نبي همة كل المسؤولين عن قضية المرأة من سياسيين، وكذلك من رجالات الفكر والنخبة لأجل اقتراح مؤتمر عام تحدد فيه مهمة المرأة، وكذلك دورها الحضاري في المجتمع بعيدا عن كل المزايدات السياسية المغرضة. كما ينبغي أن تكون مقررات المؤتمر العام دستورا يطور الوضع المأساوي للمرأة

تعليمي، لا تتورع عن تشويه هذه الفطرة ودس ما يصددها، ناهيك عن المظاهر الإباحية في وسائل الإعلام ودعوات التحلل من الدين، وهذا ما يضاعف من واجب المرأة ومهمتها التغيرية. ولذلك يجب على المرأة غرس الفضائل في نفوس أطفالها وتربيتهم على الصدق والسجيا النبيلة.

إنه ينبغي أن تُطَبَّعَ حركتنا النسائية بطابعنا لا بطابع ما يصنع في الخارج، وأن التعاون بين الرجل والمرأة ضروري لإقامة الحضارة، وإذا اعتمدت على أحدهما دون الآخر فسيستحيل قيامها وتكون أشبه ما يكون بالإنسان الأعرج الذي يسير على قدم واحدة، فكذلك شأن الحضارة إذا اعتمدت على طرف دون الآخر.

3. المرأة والمشكلة الثقافية

إذا نظرنا إلى ثقافات المجتمعات كل على حدا، فإننا نلقاها متنوعة ومختلفة المضمون من مجتمع إلى

وبالتحديد من صنع المرأة أكثر مما هو من صنع الرجل، فإعداد الولد الصالح أو البنت الصالحة، زخر للمرأة المسلمة ومساهمة منها في التغيير. ولكن كيف تؤدي المرأة المسلمة مهمتها كإعداد الرجال وتربيتهم؟ إن أول ما ينبغي أن يلفت إليه الانتباه هو أن الإنسان يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

ومن هنا تبدأ المهمة وهي حفظ هذه الفطرة من كل ما قد تتعرض له من تشويه أو انحراف وما الفطرة إلا الإسلام في نقائه وصفائه وهكذا نجد أنفسنا أمام مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية ألا وهو حفظ الدين، وهي مهمة عظيمة تقع على كاهل كل من الرجل والمرأة وهذه المهمة داخل الأسرة.

وما أكثر العوامل التي تغير الفطرة وتشوئها وتنحرف بها عن جادة الصواب، فالتسارع غيرها، بل حتى المدرسة وهي محضن تربوي

على بكارتها لليلة الزفاف شيئاً غير مقبول.

4- مسألة دور المرأة وأزمة المفهومية

تزداد مشكلة الثقافة من حيث المفهومية صعوبة خاصة باختلاف الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمم والشعوب عبر تاريخ الإنسانية، إذ تصبح مشكلة ذات صلة أو علاقة وظيفية بالإنسان رجلاً كان أم امرأة أو بفلسفته كما هو مفهومها في الغرب الرأسمالي بخلاف الفهم أو الوظيفة التي تأخذها الثقافة عند الاشتراكية أو الماركسيين، ونعني بذلك الفهم الشامل وعلاقته بالمجتمع أو بما يعرف بفلسفة المجتمع أي سيادة الصراع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة. ولكن تكفينا ملاحظة واحدة لما فيها من العبرة، ذلك أن الأزمة الثقافية هي بالأساس أزمة هوية وأزمة شرعية⁽¹¹⁾.

وتزداد مشكلة الثقافة وضوحاً وصعوبة من حيث المفهومية وذلك

آخر إلى درجة التناقض في بعض الأحيان. ولا يعني هذا أن هنالك حياة مختلفة بل يعني أن هنالك أسلوباً عاماً في المجتمع⁽¹⁰⁾ ولو تلقى نظرة متمعنة في هذا المجال بين الثقافة العربية بقيمها العامة السائدة في المجتمع العربي ككل والثقافة الغربية في المجتمع الإنجليزي أو الأمريكي مثلاً، فإننا نجد بعض القيم الراسخة عندنا مقلوبة رأساً على عقب عندهم في الوقت الذي يعج المجتمع عندهم بظاهرة الجنسية المثلية بدافع غياب الدين والعرف أو غياب المثل العليا. ونجد أن هذه الظاهرة تمثل مطلباً جماهيرياً في إنجلترا ولها قانون يحميها. والعكس من ذلك، حيث العفاف والطهر وقيم الشرف هي أساس بناء الحياة الزوجية يكمن عندنا في محافظة الفتاة على بكارتها إلى ليلة الزفاف وضياعها قبل ذلك قد يؤدي إلى ضياع عمر الفتاة جسدياً أو معنوياً على الأقل. في حين تمثل محافظة الفتاة الغربية

ثقافتنا الراهنة هي محكومة وتابعة لثقافتنا القديمة⁽¹³⁾، لأن الذي يحدث ليس هو الاطراد الثقافي في طور تكوينه وإنما الاطراد العكسي. فعندما يزول الجو الثقافي ويتعذر تركيب العناصر الثقافية في منهج تربوي عندئذ تنشأ أزمة ثقافية من أسبابها الرئيسية زوال الالتزام بين الفرد والمجتمع ويعبر عنه في صورة فلسفية كتاب اللامتامي لـ: كولن ولسن في صورته السلوكية عصابات الهيبيز. كما تحدث الأزمة الثقافية عندما يفقد الفرد حقه في النقد أو فيما يشير إليه الحديث النبوي كواجب تغيير المنكر وكل ذلك أن أزمة الثقافة تقود دائماً إلى ما يسميه بن نبي أقول الحضارة⁽¹⁴⁾.

ويشير مالك بن نبي إلى أنه حتى يمكن أن تتأسس المفاهيم والآراء في عالم الأفكار المتماسك لأجل تحديد وظيفة المرأة ودورها في المجتمع ولا تبقى مجسدة في عالم الأشخاص ليستخدمها

من خلال ارتباطها بعالم الأفكار. فالأفكار داخل المجتمع العربي والإسلامي هي جد فقيرة بل أحياناً تظهر في المجال السياسي والاقتصادي على شكل موانع كابحة تتوافق من وجهة نظر علم الاجتماع من الخصائص النفسية الاجتماعية التي يتميز بها العالم الإسلامي في الوقت الحاضر⁽¹²⁾.

ويذهب مالك بن نبي إلى أن المجتمع الإسلامي في هذه المرحلة يدفع ثمن خيانة نماذجه المثالية فالأفكار المخدولة والأفكار المستوردة أخذت تنتقم بشراسة. وهو يعبر عن ألمه وأسائه حين يرى المسلم رجلاً أم امرأة يتمزق إلى شطرين، فهو يمارس عبادته داخل المسجد، ولكنه عندما يخرج منه يصبح غارقاً في عالم آخر.

ويمكن القول إنّ الوضع الثقافي الحالي للمرأة في البلاد العربية والإسلامية هو وضع خطير ومتأزم جداً، وذلك من حيث إنّ

في العالم العربي والإسلامي من جذورها حيث يقول: «إن المشاكل التي تعاني منها الثقافة في البلاد العربية الإسلامية تعبر عن اختلال واضح في الحياة الثقافية. وأيضاً تعبر عن افتقارنا لبعض الشروط الأولية البسيطة، افتقار لا يوجد معه في المجتمع شبكة العلاقات الثقافية اللازمة تحيى فيها الأفكار. كما يفرق بين التجزيء وبين معالجة المشكلات الجزئية في إطار كلي ينظمها فالتجزيء يؤدي إلى خلل في الرؤية وبالتالي إلى التفكيك، فتبقى المشكلات معزولة عن بعضها البعض»⁽¹⁶⁾.

وقد أعطانا مثالا على ذلك عندما افتتح الرئيس المصري «جمال عبد الناصر» العيد الذهبي بجامعة القاهرة الذي وجه فيه خطاباً إلى مستمعيه من الطلبة والأساتذة قائلاً: «إنني جئت لأضع على كاهلكم مسؤولية المستقبل»، هذه الكلمات حيث تقال في مكان كهذا

الاستعمار للتأثير على شؤوننا السياسية هو بناء خصائص الحقائق النفسية الحالية في بلدنا وتجنب سياسة التفتيت المنتهجة من قبله. وبذلك تسير المعركة دون رد فتؤدي بنا إلى التدمير بسبب هذه الأخطاء المولدة. وذلك كله إنما يتم بإزالة الأسباب النفسية والاجتماعية التي أدت إلى هذه الأوضاع بسبب طغيان «الشيء» أو «الشخص». وبذلك تبسط الأفكار سلطتها على عالمنا الثقافي وتسترد تقديراتها عموماً ولا يبقى الأشخاص أو الأشياء هي التي تحكم عالمنا الثقافي «إن التعامل مع الوثن أسهل من التعامل مع الفكرة، وهذه حقيقة يعرفها الاستعمار وأتباعه جيّداً، ولذلك تشن حروباً طاحنة على الأفكار، حتى لا تكون لها القيادة في المجتمع ليرشد وينضج ويحصل على استقلاله الفكري»⁽¹⁵⁾.

وبناءً على هذا عالج مالك بن نبي قضية المرأة كمشكلة الثقافة

وللهؤلاء المستمعين تعني أن مشكلة الثقافة أصبحت ذات شأن كبير في ضمير العالم الثقافي وهذا دليل على تفهم رجال الدولة والزعماء لأهمية الثقافة باعتبارها عنصر البناء للمجتمع وللدولة⁽¹⁷⁾.

5. المرأة والبناء الحضاري

ينطلق مالك بن نبي باعتباره مفكرا مبدعا، وصاحب نظرية عميقة في البناء الحضاري⁽¹⁸⁾، بما امتلكت أفكاره من مكونات القوة بتركيزها على القضايا الأساسية والمحورية في العالم الإسلامي وخاصة من مسألة الحضارة، أفكارها وروحها ومظاهرها. إن الحضارة ليست في أجزاء مبعثرة ملفقة ولا مظاهر خلاصة، بل هي جوهر ينظم جميع أشتاتها فاهتَمَّ بمشكلة الحضارة والنهضة، والثقافة الاستعمار والتبعية، فدرسها في كل مؤلفاته أبعادها فأبدع فيها وطور بعض مفاهيمها، وهذا ما جعله متخصصا في العمل الفكري وصاحب أفكار

تتمتع بالانتشار والقبول، إضافة إلى أن أفكاره غلّبت الجانب البنائي على الجانب الهدمي باعتبار أن ذلك هو التوجه الصحيح للأفكار وللقيم.

إن مالك بن نبي ينطلق من فكرة محورية وهي: أن أي نهضة مجتمع تتم في نفس الظروف التي شهدت ميلاده، وعلى هذا فإن إعادة بناء المجتمع المسلم الحديث مساهمة مشتركة بين الرجل والمرأة لا بد أن تنطلق من الفكرة الدينية كأساس لأي تغيير اجتماعي، لهذا كانت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾⁽¹⁹⁾.

ويمكن القول إن هذه الآية الكريمة تمثل نقطة ارتكاز هامة في منظومته الفكرية. لكن المفسرين يرون أن هناك نوعين من المعوقات فيما يتعلق ببناء المجتمع أو البناء الحضاري فالمدافعون عن الاستعمار يرجعون سبب تأخير الإقلاع الحضاري إلى الإسلام، وأما حاملو لواء النظرية القومية فيعزونه

أولاً تأجيل كل عمل بانتظار
«العيد» الموعود المتمثل في التحرر
من الاستعمار أو الوحدة أو قيام
الدولة التي تطبق الشريعة الإسلامية.

وثانياً تعليق كل مأساة من مآسينا
على مشجب عدم تنفيذ وصفة
من الوصفات الجاهزة التي قامت
عليها الإيديولوجية السياسية العربية
المعاصرة، فمشاكلنا كلها ناتجة
عن: الاستعمار أو التجزئة السياسية،
أو عدم تطبيق الشريعة الإسلامية.

ومن هنا فإن مجتمعنا بحاجة إلى
ثورة نهضوية سلمية داخلية تؤثر من
أسفل لا من أعلى، وهي بلا شك إن
قامت ستُجبر البناء الفوقي على أن
يتماثل معها، وهذا معنى الحديث
الشريف «كَمَا تَكُونُوا يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ»
ومعنى الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا
يَقُومُ حَتَّى يُغَيَّرُوا مَا بِأَفْسَحٍ﴾ (21).

أهم الاستنتاجات:

- ليس هناك مشكلة للمرأة معزولة
عن مشكلة الرجل، فالمشكلة واحدة

إلى الاستعمار، وفي كلتا النظريتين
خطأً جسيماً. فالفريق الأول عندما
يحمل الإسلام مسؤولية كل هذه
الأوضاع يتجاهل حقيقة صارخة
وهي أن الاستعمار مسؤول عن
النصيب الأكبر من الفوضى التي
تسود العالم الإسلامي اليوم. أما
الفريق الثاني فعندما يلقي اللوم كله
على الاستعمار فإنه يحاول أن يخفي
سياسة التملق التي يتبعها مع شعوبه
كونها لا تخفف من حدّة المشكلة
بل على العكس تزيد الطين بلة مما
يشبه عملية تخدير لهذه الشعوب
تلفتها عن مسؤوليتها في ورطتها
الحالية⁽²⁰⁾.

الحقيقة أن النهضة مؤلفة من
«أعمال صغيرة» هي مجموعة من
الواجبات الملقاة على عاتق كل فرد
في المجتمع رجلاً كان أم امرأة،
ولكن لكي يقوم هذا الفرد بواجباته
يجب عليه أن يحس بالمسؤولية،
ولكن الحقيقة أن فكرنا السياسي
يشتكي من أمرين:

هي مشكلة الفرد في المجتمع.

. المرأة كائن كامل المعالم، وهذا الكائن الإنساني لا يقع خارج التاريخ ولا خارج المجتمع. لكن دوره محدود بنشاطه وحركيته بتغييره الاجتماعي والثقافي داخل المجتمع الإسلامي أو من حيث دوره في التاريخ صانعا للحضارة. . تزداد قضية المرأة كمشكلة ثقافية من حيث المفهومية صعوبة خاصة باختلاف الأيديولوجية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأمم والشعوب عبر تاريخ الإنسانية، إذ تصبح مشكلة ذات صلة أو علاقة وظيفية بالإنسان أو بفلسفته في الحياة.

. إن أكبر خطر على الإنسان المسلم والمرأة خاصة هو عندما يعيش داخل جو متأزم ثقافيا هو فقدانه لإنسانيته، وبالتالي انقطاع أي علاقة مع مجتمعه فتكسر قوة التماسك مع غياب العنصر الأخلاقي والجمالي في حياته كل

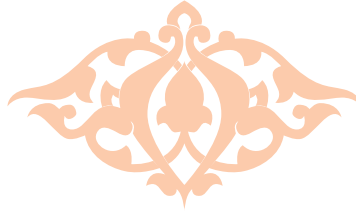
هذا يقود إلى نكسة حقيقة ليس من السهل حلها.

. ترتبط عملية البناء الحضاري ودور المرأة المسلمة فيه لا محالة بالأفكار الأصلية، فالفكرة الأصلية لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة والفكرة الفعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة، وتلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم حينما يصبح هذا الخلط في أيدي المتخصصين في الصراع الفكري وسيلة لاغتصاب الضمائر: إن عالم الأفكار هو الذي يدعم عالم الأشياء العالم الذي لا يقف على قدميه بدون العالم الأول ولا يمكن أن يقف على قدميه بنفسه إذا ما أطاحت به النوائب.

. مشكلة الحضارة تتطلب حلولاً لا على مستوى الدولة فحسب، بل وضروري جداً أن تكون قبل ذلك على مستوى الفرد، لأن الرقي بالفرد هو بالضرورة تقدم للدولة وليس العكس. فنجاح أي بناء مادي

أو اجتماعي يعتمد على مدى قوة أصغر وحدة، فإذا كانت قوية جاء البناء بعد ذلك قويا، أما إذا كان الاهتمام بالشكل النهائي للبناء فقط وعدم الاكتراث بوحداته الصغيرة، فإن العمل حقا لن يكون قويا، بل وقابلا للانهار.

- يربط مالك بن نبي في تحليلاته لمشكلات الحضارة مع وحدتين أساسيتين هما: الحضارة والفرد، الأولى كأوسع وحدة اجتماعية يمكن أن تتحقق في التاريخ، والثانية كأصغر وحدة اجتماعية. ومشكلة المسلم عنده هي مشكلة حضارة، وليست مشكلة دولة.



الهوامش

- (1) مالك بن نبي، كومنولث إسلامي، ترجمة الطيب شريف، بيروت لبنان، ص، 70.
- (2) د/ أديب خضور، صورة المرأة في الإعلام العربي الطبعة الأولى، دار الأيام للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1999، ص، 08.
- (3) مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت 1981، ص، 174.
- (4) أنور الجندي، النفس، دراسات إسلامية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1982، ص، 162.
- (5) مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، ترجمة عمر مسقاوي، منشورات المكتبة العصرية بيروت، 1960، ص 58.
- (6) أحمد إبراهيم فاطمة، المرأة العربية والتغيير الاجتماعي، ص، 19.
- (7) مالك بن نبي، في مهب المعركة، الطبعة، الثانية، دار الفكر، الجزائر، 1988م، ص 97.
- (8) المصدر نفسه، ص، 98.
- (9) المصدر نفسه، ص، 137. 138.
- (10) راسال جاكوبي، نهاية اليوتوبيا، السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة، ترجمة، فاروق عبد القادر، سلسلة عالم المعرفة، 2001، ص73.
- (11) Hana Arendt. La crise de la culture. traduit de l'anglais par Patrick levy. collection Gallimard. france. 1972. p. 269.
- (21) مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر دمشق سورية، 1995، ص37.
- (13) د/ محمد عابد الجابري، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، بيروت، 1999، ص112.
- (14) الطيب برغوث، موقع المسألة الثقافية من استراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي، ط، الأولى، دار النابيع للنشر والإعلام، الجزائر، 1993، ص، 19.
- (15) Messaoud boujnoun. L'islam et l'occident . Dar el baath. constantine1984. p. 85.

ص 64.

(18) مولاي محمد السعيد، إشكالية الحضارة عند مالك بن نبي، مجلة الموافقات، المعهد العالي لاتالي، جوان 1994، ص، 68.

(19) سورة الرعد، الآية رقم 11.

(20) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مصدر سابق، ص ص. 97-98.

(21) سورة الرعد الآية رقم 11.

(16) Talbi Ammar. the implication of Malek Ben nabi's view on contemporary Muslim society. International, seminary on Malek ben nabi institute of advanced studies. University Malaya. 1 st. 4 th sep. 1991. p4.

(17) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، بيروت، 1981،

